

لإنسان على آخر إلا بالتقوى وبما يقدمه من خير للناس، وبما أننا لا نطلع على التقوى لأنها سر بين الإنسان والله، فيبقى لنا العمل والسلوك والتعاون على ترقية الحياة والنهوض بها .

وخلاصة القول إن علينا أن نركز في كل تعاملاتنا وحواراتنا مع غيرنا من بني البشر - أيا كانت عقائدهم وأجناسهم ولغاتهم - على ما يجمعنا لا على ما يفرقنا . ولا خلاف بين البشر منذ أن خلقهم الله وإلى آخر الزمان على القيم الأخلاقية الفطرية المشتركة التي تشكل أساساً راسخاً للتعايش بين البشر جميعاً من أجل التعاون المشترك على بناء عالم ينعمون فيه جميعاً بالسلام والاطمئنان .

ولا شك في أن هذه الدعوة لكي تثمر الثمرة المرجوة لابد أن تتسع لها مناهج التعليم وتبناها كل أسرة، وتبناها المجتمع بأسره بكل مؤسساته الحكومية والمدنية . فالأمر الذي لا ينبغي أن يغيب عن الأذهان أننا مسئولون مسئولية كاملة عن تأمين مستقبل مشرق بالأمل للأجيال الجديدة التي لم يكن لها أي ذنب في النزاعات والحروب التي شهدتها البشرية في السابق، كما أنه لم يكن لها فضل في الإنجازات التي أنجزها السابقون .

ومسئوليتنا أن نهيئ لهذه الأجيال الجديدة الفرصة لبناء مستقبل ينعم فيه الجميع بالأمن والسلام والاستقرار .

* * *

في مواجهة دعوى "تاريخية القرآن"

بقلم: د. محمد عبد الفضيل القوصي

حين كان بعض المستشرقين يتوجهون بسهام النقد إلى الإسلام عقيدة وشرعية وتاريخاً وحضارة: كانوا يفعلون ذلك من "خارج" دائرة الإسلام، إما بدافع العداء للدين بوجه عام، أو بدافع العداء الصريح للإسلام وحده بوجه خاص: في علانية، لا موارد فيها ولا ممارسة .

لكن فريقاً من سدة التنوير - في مشرق العالم الإسلامي ومغربه: لا يسلكون في تفكيرهم هذا المسلك، بل يعمدون إلى كيان الإسلام كله - كما وعته الأمة بسلفها وخلفها، وعلمائها ومحققها على مدى القرون فيزعمون أن تلك الأمة - التي ضمن الرسول الكريم - ﷺ - ألا تجتمع على ضلالة - قد غفلت عن الفهم الصحيح لهذا الكيان الشامخ، ومن ثم فقد أضحي لزماً أن ينهض أولئك السدنة - فيما يزعمون - لتجديد هذا الفهم وتصحيح مساره، وذلك بابتداع "قراءات حديثة" للإسلام تنطلق من منطلقات مناقضة لتلك التي استقرت في وعي الأمة، بحيث تأتي عليها من القواعد، حتى لقد اجتراً بعض أولئك السدنة على تسمية تلك القراءات المستحدثة: "الوجه الثاني" للإسلام، أو "الرسالة الثانية" للإسلام!!.

في هذا المناخ الخادع برزت قضايا التنويريين الزائفة في "بشرية القرآن"، و"تأنس القرآن"، و"القراءات الجديدة" للنص المقدس، وغيرها من الأضاليل المفتراة التي يرتبط بعضها ببعض، والتي تهدف في مجموعها إلى إخضاع النصوص الثابتة من الكتاب والسنة للأفهام البشرية الذاتية المتغيرة، ووضعها تحت رحمة السياقات الاجتماعية السائدة، لتكون تلك النصوص محكومة بأفهام البشر، خاضعة للظرف الاجتماعي السائد، مما يؤدي في النهاية إلى محو كل ما لتلك النصوص المقدسة من دلالات أصيلة راسخة، وتشريعات إلهية ثابتة، وها هو أحد أولئك السدنة يقول بالنص الحرفي: "إن الخطاب القرآني خطاب تاريخي لا يتحقق إلا من خلال التأويل الإنساني، وهو خطاب لا يتضمن إطلاقية المطلق، ولا قداسة الإله!"

ثم تأتي دعوى "تاريخية القرآن" لكي تكون لبنة في هذا البناء المتصدع، فالقرآن الكريم - طبقاً لهذه الدعوى - مرتبط أوثق ارتباطاً بأسباب نزول آياته، وتاريخ نزولها، مما يعني في هذا الفهم الكليل: أن جميع آيات القرآن الكريم موجهة ومحددة بأناس معينين، وبتاريخ معين في زمن معين بحيث لا تتجاوز

مدلولات تلك الآيات الكريمة هذه الحدود قيد أنملة، وحينئذ يصبح من حق من هو خارج هذه الحدود أن يفهم من تلك الآيات ذاتها فهما آخر، وفقا لظروفه ومواضعاته السائدة !!

إن خطاب القرآن الكريم إلى "الناس" - كما يدعي أحد سدنة التنوير بالنص الحرفي - لا يصح أن يتوجه إلى البشرية جميعا في كل زمان ومكان، بل المقصود بالناس - كما يتابع - الجماعة الأولى التي كانت تحيط بالنبي ﷺ والتي سمعت القرآن من فمه لأول مرة، وحينئذ ينبغي أن يترك مفهوم الإسلام وتراثه مفتوحين وغير محددين بشكل نهائي مغلق، لأنهما خاضعان للتغير المستمر الذي يفرضه التاريخ)!!.

هذه الدعوى المضللة تثير قضايا عدة، يفضي بعضها إلى بعض:

أولاهـا: إنه بمقتضى دعوى تاريخية النص القرآني، يصح لكل فرد، في كل زمان أن يفهم التشريع الإلهي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه: فهما مناقضا لأفهام سلف الأمة وخلفها، فيكون للنص القرآني أفهام متعددة بعدد قارئيه، وقراءات شتى بحسب ظروفهم الاجتماعية والتاريخية ومواضعاتهم الثقافية واتجاهاتهم الفكرية، بل يصبح لكل فرد بذاته: قراءات بعدد تقلب مزاجه، وتموج ميوله، وهذا أحد سدنة التنوير يقول بالنص الحرفي: (إن قراءة النص الديني التي أحلم بها هي قراءة حرة إلى درجة التسكع!!، إنها قراءة تجدد فيها كل ذات بشرية نفسها)، بل لقد وصلت الجراءة بأحدهم إلى الدعوة إلى ترك الحرية للمسلم يتعبد بالصيغة التي يراها، وبالطريقة التي تختلف عن طريقة التعبد عند الآخرين!!.

وإذا كان الأمر على هذا النحو من الذاتية والنسبية والزئبقية .. فما الحاجة إذن إلى وجود النص المقدس ذاته، وقد قضت تلك الدعوى المضللة على موضوعيته وثباته وعموميته القضاء المبرم، ولماذا لا يترك الناس منذ البدء بلا هدى ولا كتاب منير، يضعون لأنفسهم ما شاءت لهم أنفسهم من العبادات والتشريعات على

النحو الذي يشتهون؟

ثانيتهما: إنه بمقتضي تلك الذاتية والفردية التي ينظر التنويريون بمنظارها إلى النص القرآني: يصبح هذا النص القرآني - وحاشاه - فارغا من كل مضمون، وقابلا لأية تصورات تقحم عليه مهما كان شذوذا وضلالا، بل ينتهي به هذا العبث المرفوض إلي مجرد "نصائح عامة وإرشادات فضفاضة" يفهمها كل امرئ على ما يريد ويشتهي !!

فأين إذن تلك المهمة الرسالية للوحي المنزل؟ تلك المهمة التي تقتضي منه أن يكون حاكماً على تصرفات البشر وموجها لأنماط سلوكهم، كما تقتضي منه أن يكون ضابطاً لأهوائهم؟ ثم أين تلك "العمومية" التي أناطها القرآن الكريم بالإسلام بحكم خاتمته للرسالات طراً، والتي صدع بها الرسول الأكرم في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾ (الأعراف: ١٥٨)؟

ثالثتها: إن تذرّع سدة التنوير "بعلم أسباب النزول" يثير العجب من جرأتهم على تشويه مسلمة هذا العلم وقواعده الراسخة، فلقد انتهى ذلك العلم - بعد الاستقرار التام للخطاب القرآني - إلى أن أسباب النزول إنما هي "مناسبات" لتنزل الآيات، لكن تلك الآيات حين تنزل فإنها تعم البشر أجمعين، في سائر الأزمنة والأمكنة، دون أن تقتصر على أشخاص من نزلت بشأنهم، وإلا فأين الآيات القرآنية الكريمة التي تخاطب (الناس) و(بني آدم) و(العالمين)؟؟

لقد نزل - مثلاً - قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾ (الليل: ١٧) في أبي بكر رضي الله عنه ليبشره بالنجاة من النار، جزاء وفاقاً على بذله المال الوفير لوجه الله تعالى، أفيمكن أن يستسيغ الفهم المستقيم أن هذه البشرية قاصرة على أبي بكر فحسب، وخاصة به وحده، أم أن هذا الفهم المستقيم يتجه إلى أن هذا حكم عام ينطبق على كل من صنع مثلما صنع الصديق، وبذل مثلما بذل، وأن الحكمة من ذكر هذا الأمر "الخاص": إنما هي حث الناس "عامة" على أن يقتدوا به

ويحتذوا حذوه؟

من هذا المثال وغيره استنبط العلم الإسلامي الرصين، تلك القاعدة الثمينة، وهي أن (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب) مثلما استنبط النحاة من أقوال العرب الخالص: أن الفاعل مرفوع!

بيد أن تلك القاعدة الثمينة - التي ما انفك التنويريون يثيرون حولها اللغط - مصدر فخار للإسلام وتشريعاته المنزلة، لأنها تجسد شمولية نظرة الإسلام التشريعية والخلقية الهادية للبشرية بأسرها، دون أن يتوقف سريانها وانسيابها عند جنس بعينه أو جماعة بذاتها، أو زمن لا تتعداه إلى غيره .

ثم ألا يدرك التنويريون أن انحصار الأحكام الشرعية المنزلة في أشخاص من نزلت بشأنهم دون سواهم كما يدعون: إنما يعني أن شريعة الإسلام تفرق بين المتماثلين، وتحابي بعضهم دون بعض، ثم ألا يعني ذلك الانحصار تقطيعاً لأوصال القيم الخلقية التي تقوم على المطلقية والعمومية؟؟

بل إنني أقول: إن تلك القاعدة الثمينة تنهض دليلاً ساطعاً على "وحدة التشريع" التي تدل بدورها على "وحدانية منزل التشريع" الذي يستوي عنده البشر جميعاً: أمراً ونهيًا، ورحمة وعدلاً، وصدق الحق سبحانه إذ يقول: ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ (المؤمنون: ٧١).

المواطنة

بقلم: د. محمد عمارة

هل المواطنة لابد أن تكون علمانية؟ .. وهل تحققها يستلزم التخلي عن المرجعية الإسلامية في القانون والتشريع؟
إن المواطنة مفاعلة - أي تفاعل - بين الإنسان المواطن والوطن الذي ينتمي إليه